المناخ الذي عاشته القصيدة العربية، ودرجة تطوّر هذه القصيدة، والتفاعل الذي عاشه الشاعر مع حركة التجديد التي كانت في تلك الايام تدق، بقوة، أبواب الشعر وتحاول أن تخرجه من نمطية القصيدة البيتية الملتزمة بالبحر والقافية، والتي أصبحت عاجزة عن الاستجابة التعبيرية لتطوّرات واقع متحرك، كان هو الآخر لا يكاد يستقر على حال حتى يسارع الى نقض هذا الحال.

إذن، عاش معين بداياته الشعرية مع بداية سنوات الاربعينات. إذ ذاك تعرّف هو والشهيد كمال ناصر إلى الشاعر عبدالكريم الكرمي (ابو سلمى) بوصفهما شاعرين ناشئين. هذه الاشارة الى زمن البداية الابداعية هي، في الوقت عينه، إشارة الى الزمن المحبط الذي كانت تعيشه القصيدة العربية. ففي تلك السنوات من الاربعينات أخذت حركة التجديد في الشعر العربي تخطو خطوتها الاكبر والاهم على يد ثلاثة التجديد في العراق، بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبدالوهاب البياتي. وفي تلك الايام أخذ الجدل النقدي يحتدم حول القصيدة الجديدة ـ قصيدة التفعيلة، ويقسم صفوف الشعراء والنقاد والقراء على حد سواء، بين مؤيد لخطوة التجديد داعياً إليها، وبين رافض لهذه الخطوة داعياً، على العكس منها، الى التمسّك بالبحر الواحد والقافية الواحدة؛ حتى أن الكثيرين من أنصار المحافظة ربطوا رفضهم بأسباب ومبرّرات سياسية وأيديولوجية حين اتهموا حركة التجديد بأنها خروج على التراث القومي، ومن ثمّ خروج عن الالتزام القومي، لا يخدم الاّ أعداء الامة والمتربّصين بها. وإذ كانت حركة التجديد قد أخذت أبعادها في العديد من الاقطار العربية في المشرق، إلاّ أنها جاءت الى الشعر الفلسطيني متأخرة نسبياً، وكان حضورها على يد الشاعر الراحل معين بسيسو. وإذا كان معين قد دشّن حضوره الشعري بنتاج كلاسيكي تمثّل في مجموعتيه الشعريتين الأوليين، «المسافرة» و«المعركة»، فإنه ما لبث في مجموعته الثالثة «حينما تمطر الاحجار» أن خطا خطواته الكبيرة نحو قصيدة متحررة من عروض يلتزم فيها بحراً واحداً، لينحاز الى التفعيلة الواحدة بكل ما يوفّره له هذا الانحياز من مرونة أكبر في التعبير:

يا سهيْر
أنا في المنفى أغني للقطار
وأغنّي للمحطة
أيّ هزّة
حينما تومض في عينيّ غزه
حينما تلمع أصوات الرفاق
حينما تنمو كغابه
من بروق ورياحْ
حينما يلمع برق الكلمات
كلمات من حديد
تطرق الباب الحديد[٣].

الديوان الحديث الاول «حينما تمطر الأحجار» إحتوى ثلاث قصائد جاءت مكرسة لموضوعات نضالية عربية تنقّل فيها الشاعر بين فلسطين وقناة السويس والعراق، وكانت عناوينها على التوالي: «إرفعوا الأيدي عن أرض القناة»، و«السجن الكبير»، و«الصوت ما يزال». وهنا يبرز المضمون الى جانب الشكل باعتبار ان الموضوعات التي عالجها معين في هذه القصائد اتسمت بالحدثية وبالاستجابة لتفاعلات نضالية كبرى كانت تقع في أقطار الوطن العربي. ومنذ البدء، سنلاحظ